668321 ـ كيف الجمع بين آية: {وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ} وحسن الظن بالله تعالى؟

السؤال

كيف الجمع بين حسن الظن بالله وآية (وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون)؟

ملخص الإجابة

آية "سورة الزمر" لا تعلق لها بالمحسنين الظن بالله تعالى على الوجه المشروع؛ وإنما هي عن الغافلين والمغترين والمكذبين.

الإجابة المفصلة

الحمد لله.

أولا:

من الواجب على المؤمن أن يحسن الظن بالله تعالى، ولا ييأس من رحمته وكرمه.

قال الله تعالى:

قَالَ وَمَنْ يَقْنَطُ مِنْ رَحْمَةِ رَبِّهِ إِلَّا الضَّالُّونَ الحجر (56).

وقال الله تعالى:

وَلَا تَيْأَسُوا مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لَا يَيْأَسُ مِنْ رَوْحِ اللَّهِ إِلَّا الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ يوسف (87).

ومن كرم الله تعالى أنه سبحانه وتعالى عند ظن عبده به.

فعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، قَالَ: قَالَ النَّبِيُّ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: (يَقُولُ اللَّهُ تَعَالَى: أَنَا عِنْدَ ظَنِّ عَبْدِي بِي) رواه البخاري (7405) ومسلم (2675).

وحسن الظن هذا هو ما يوافق ما جاء به الوحي؛ بأن يلزم العمل الصالح الذي ندبه الشرع إليه، وحثه عليه، على رجاء من الله جل جلاله أن يتقبله منه، واحتساب الأجر فيه من رب العالمين. فيحمله حسن ظنه بربه، وأنه تعالى: غفور شكور، على ألا يقنط من تقصيره، ونظره إلى سوء حال نفسه، وقلة بضاعته من الخير؛ بل يرجو من الله (الغفور): أن يغفر له تقصيره

وقصوره، ويرجو من الله (الشكور): أن يتقبل منه قليل عمله، ويجزيه عليه برحمته وكرمه.

قال القاضي عياض رحمه الله تعالى:

"وقوله: (أنا عند ظن عبدى بي): قيل: معناه: بالغفران له إذا استغفرنى، والقبول إذا أناب إليّ، والإجابة إذا دعانى، والكفاية إذا استكفانى؛ لأن هذه الصفات لا تظهر من العبد إلا إذا أَحسن ظنه بالله وقوى يقينه" انتهى. "اكمال المعلم" (8 / 172).

فحسن الظن إنما يكون مع إحسان العمل والإيمان واليقين.

وهذا كما في قوله تعالى:

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَالَّذِينَ هَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَئِكَ يَرْجُونَ رَحْمَتَ اللَّهِ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ البقرة (218).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

"فتأمّل كيف جعل رجاءهم إتيانهم بهذه الطّاعات!

وقال المغترّون: إنّ المفرّطين المضيّعين لحقوق الله، المعطّلين لأوامره، الباغين على عباده، المتجرّئين على محارمه ـ أولئك يرجون رحمة الله!

وسرّ المسألة أنّ الرَّجاء؛ وحسن الظّنّ إنّما يكون مع الإتيان بالأسباب الّتي اقتضتها حكمة الله في شرعه، وقدَره، وثوابه وكرامته؛ فيأتي العبد بها، ثمّ يحسن ظنّه بربّه، ويرجوه أن لا يكِلَه إليها، وأن يجعلها موصلة إلى ما ينفعه، ويصرف ما يعارضها، ويبطل أثرها" انتهى. "الداء والدواء" (ص87).

وقال الملا علي القاري، رحمه الله: حسن الظن به تعالى من جملة العبادات الحسنة، فلا ينبغي أن تظن ما يظنه العامة من أن حسن الظن هو أن تترك العمل وتعتمد على الله وتقول: إنه كريم غفور رحيم. انتهى، من مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح (8/ 3159).

ثانيا:

وأمّا قول الله تعالى: وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ الزمر (47).

فهذه الآية ليست عن المحسنين الظن بالله تعالى على الوجه المشروع؛ وإنّما هي عن المعرضين عن الهدى، الغافلين، المغترين بالحياة الدنيا، كحال كفار قريش؛ أي سيجد هؤلاء الكفرة من العذاب مالم يظنوه ويتصوروه.

وهذا بين ظاهر من سياق الآية الكريمة بتمامها. قال الله تعالى: وَلَوْ أَنَّ لِلَّذِينَ ظَلَمُوا مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ مِنْ سُوءِ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ الزمر/47

قال الإمام الطبري، رحمه الله: «يقولُ تعالى ذكرُه: ولو أن لهؤلاء المشركين باللهِ يومَ القيامةِ، وهم الذين ظلَموا أنفسَهم، مَا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا في الدنيا من أموالِها وزينتِها، وَمِثْلَهُ مَعَهُ مضاعفًا، فقُبِل ذلك منهم عوضًا من أنفسِهم، لفَدَوا بذلك كلِّه أنفسَهم عِوضًا منها؛ لينجُوا من سوءِ عذابِ اللهِ، الذي هو معذِّبُهم به يومَئذٍ، وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ. يقولُ: وظهَر لهم يومَئذٍ من أمرِ اللهِ وعذابِه، الذي كان أعدَّه لهم، مَا لَمْ يَكُونُوا قبلَ ذلك يَحْتَسِبُونَ أنه أعدَّه لهم» انتهى. "تفسير الطبري" (20 / 220).

وقال ابن قتيبة، رحمه الله:

«وَبَدَا لَهُمْ مِنَ اللَّهِ مَا لَمْ يَكُونُوا يَحْتَسِبُونَ يقال: إنهم عمِلوا في الدنيا أعمالا كانوا يَرَوْنَ أنها تنفعُهم؛ فلم تنفعْهم مع شركِهم.» انتهى، من غريب القرآن (ص384).

فهؤلاء لم يكونوا يحسنون الظن بالله ولم يكونوا يصدقون بما يخبر به رسوله من الوعد والوعيد؛ بل كانوا يكذبون به؛ بل يسخرون من ذلك كله؛ كما بينته الآية التي تليها، حيث قال الله تعالى:

وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ الزمر (48).

قال الإمام الطبري رحمه الله تعالى:

"يقول تعالى ذكره: وظهر لهؤلاء المشركين يوم القيامة سَيِّئَاتُ مَا كَسَبُوا من الأعمال في الدنيا، إذ أعطوا كتبَهم بشمائلهم، وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ: ووجب عليهم حينئذ، فلزمهم عذاب الله الذي كان نبيّ الله صلى الله عليه وسلم في الدنيا يعدهم على كفرهم بربّهم، فكانوا به يسخرون؛ إنكارا أن يصيبَهم ذلك أو ينالهم؛ تكذيبا منهم به، وأحاط ذلك بهم" انتهى. "تفسير الطبري" (20 / 220).

فهاتان الآيتان شبيهتان بقول الله تعالى:

وَإِذَا قِيلَ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَالسَّاعَةُ لَا رَيْبَ فِيهَا قُلْتُمْ مَا نَدْرِي مَا السَّاعَةُ إِنْ نَظُنُّ إِلَّا ظَنًّا وَمَا نَحْنُ بِمُسْتَيْقِنِينَ * وَبَدَا لَهُمْ سَيِّئَاتُ مَا عَمِلُوا وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِئُونَ * وَقِيلَ الْيَوْمَ نَنْسَاكُمْ كَمَا نَسِيتُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا وَمَأْوَاكُمُ النَّارُ وَمَا لَكُمْ مِنْ نَاصِرِينَ * ذَلِكُمْ بِأَنَّكُمُ اتَّخَذْتُمْ آيَاتِ اللَّهِ هُزُوًا وَغَرَّتْكُمُ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فَالْيَوْمَ لَا يُخْرَجُونَ مِنْهَا وَلَا هُمْ يُسْتَعْتَبُونَ الجاثية (32 ـ 35).

فالكفار ليس من شأنهم إحسان الظن بالله تعالى، بل يسيئون الظن به سبحانه؛ لذا لم يعظموه ولم يوحّدوه، ولم يصدقوا رسله.

كما قال الله تعالى:

وَيُعَذِّبَ الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ الظَّانِّينَ بِاللَّهِ ظَنَّ السَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَائِرَةُ السَّوْءِ وَغَضِبَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا الفتح (6).

قال ابن القيم رحمه الله تعالى:

"فلم يُجمَع على أحد من الوعيد والعقوبة ما جُمِع على أهل الإشراك؛ فإنهم ظنّوا به ظنّ السّوء، حتّى أشركوا به، ولو أحسنوا به الظّنّ: لوحّدوه حقّ توحيده، ولهذا أخبر سبحانه عن المشركين أنّهم ما قَدَروه حقّ قدره في ثلاثة مواضع من كتابه؛ وكيف يَقدُر:رُه حقّ قدره من جعل له عِدْلا ونِدًا يحبّه، ويخافه، ويرجوه، ويَذِلّ له، ويخضع له، ويهرب من سخطه، ويُؤْثِر مرضاته؟" انتهى. "إغاثة اللهفان في مصايد الشيطان" (1 / 102).

الخلاصة:

آية "سورة الزمر" لا تعلق لها بالمحسنين الظن بالله تعالى على الوجه المشروع؛ وإنما هي عن الغافلين والمغترين والمكذبين.

والله أعلم.